

الظروف الصعبة



في الظروف الصعبة والأيام العصيبة، عندما تتسلط (وتتسلط) علينا ضغوط الحياة وتكتنفنا المضايقات من كل حذب وصوب، نحتاج إلى وقفة مع الذات لتأمل الصورة الكبرى للحياة لعلنا نستشف المقاصد الإلهية المتصلة بمصير الإنسان.

في تلك الرؤية الأوسع والأكثر شمولاً تتلاشى مصاعبنا أو تبدو أصغر حجماً وأقل سطوة، فنذكر أن ما يحدث لنا ليس بنفس الدرجة من الأهمية وأن الأهم هو ما نتعلمه من التجارب التي نمر بها. ففي العبرة التي نستخلصها والدروس التي نتعلمها من اختباراتنا تكمن قيمة تلك التجارب التي هي عنصر أساسي وشرط لا غنى عنه لتطورنا ونموننا. فالتجارب والمحاضرات والدروس لا تكمن قيمتها بما تحويه من تفاصيل بل بقدرتها على تنبيهنا إلى منعطفات هامة في حياتنا وحفزنا على التفكير الجاد وتفعيل الطاقات البناءة.

ما من معلم يستطيع أن يأخذنا أبعد من الباب حيث يتحتم علينا الدخول بمفردنا واستكشاف الأعماق القصية في خلوة النفس.

إن عالمنا الشخصي بما يحويه من أقمار تجارب وشموس اختباراتٍ نجذبها إلى مجالنا الذاتي.. هذا العالم الصغير لا يبدو كبيراً بالنسبة لوعينا فيما لو تمكنا من توسيع حدود ذلك الوعي لاحتواء الصورة الأكبر.

هذا لا يعني أن الدور الذي نلعبه عديم الأهمية. فأهميته تضارع أهمية أصغر قطعة أو أدق تفصيل في أكبر آلة أو جهاز أو لوحة فنية.

وبإمكاننا أن نلعب ذلك الدور بكيفية أفضل إن استطعنا تحرير أنفسنا من ربة الهموم ومن التركيز على الأشياء غير الجوهرية في الحياة.

يسود التشاؤم لأن كل شخص على دراية بما يكمن ضمن محيط رؤيته المحدودة. وحتى التاريخ نفسه لا يغطي سوى حقبة وجيزة من تاريخ الإنسان الفعلي. في الارتقاء اللولبي لوعي الإنسان هناك حقيقة مؤكدة وهي أن النمو الذاتي وخدمة الآخرين هما عنصران متلازمان أبداً، يسيران يداً بيد. والسبب هو ما يلي:

لو أن كل أحداث هذه الحياة منذ نشأتها عُرضت أمامنا ثانية، ابتداءً من الظلمة والخواء، قبل أن تأتي الأرض إلى الوجود، لمرت أمامنا الحقبة تلو الأخرى.. ربما ملايين من السنين.. تعقبها ملايين عبر الأطوار والأدوار التي خلالها تشكلت الصور ودب فيها نبض الحياة. الصور المتعاقبة المعروضة على ستارة الوعي ستظهر مراحل الحياة المختلفة ونشئها التدريجي، وصولاً إلى الإنسان في تطوره الحاضر. ولكن للأسف لن نبصر الكثير من المشاهد التي تترجم الوصية الإلهية "طوبى لصانعي السلام" أو "وإذا جنحت للسلم فاجنح لها." تلك الوصية المقدسة لم تتحقق سوى في وعي القليل من البشر على مر العصور. لكنها مع ذلك تمتلك قوة تحقيق كامنة في كل نفس. عندما يتطور وعي الإنسان ويصبح أكثر تناغمًا مع خالقه مصدر كل حب وسلام سيبزغ فجرٌ أكثر إشراقاً وتظهر آفاقٌ أوسع وأرحب.. حقاً إن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم. ومسؤوليتنا الشخصية تكمن في بذل المجهود الواعي لتوسيع دائرتنا الذاتية.. لاستعمال كل ذرة من ذكائنا لحل مشكلاتنا. وعندما نمتلك رصيلاً كافياً من المحبة والفهم الصحيح سنصبح عندئذٍ مؤهلين لمساعدة أنفسنا ومد يد العون للآخرين، ونكون بذلك قد لعبنا دورنا وأدينا واجبنا في الحياة.

والسلام عليكم

المصدر: كنوز شرقية

الترجمة: محمود عباس مسعود